كلمة الدكتور حسن حنفي
في حفل تأبين المرحوم الدكتور بديع الكسم

أسرة الفقيد المحترمة

الأستاذ الدكتور رئيس جامعة دمشق

سيداتي، آنساتي، سادتي

من القاهرة التي أحبها الفقيد أتيت معزياً لكم، وللفقيد فيها صلة قرابة، ولنا معه فيها صداقة وأخوة وزمالة في العلم والفكر والوطن والأمة.

هو من الرعيل الثاني لرواد الفكر العربي وأساتذة الفلسفة العربية الحديثة من الأربعينات مع زكي نجيب محمود، وتوفيق الطويل، ومحمد عبد الهادي أبو ريدة، ومحمود أمين العالم، وسامي الدروبي، وعبد الرحمن بدوي، ومحمود قاسم، وعادل العوا، بعد الرعيل الأول مثل إبراهيم بيومي مدكور وعثمان أمين، ومحمد مصطفى حلمي، وأبو العلا عفيفي، وعلي سامي العشار، ومحمد علي أبو ريدة تلاميذ المؤسس الأول للفلسفة في البلاد العربية مصطفى عبد الرازق تلميذ محمد عبده تلميذ الأفغاني، فقد ارتبطت نشأة الفلسفة العربية الحديثة بالحركة الإصلاحية، أحد مكونات عصر النهضة العربية، وهو الممهد لجيل الخمسينات، صادق جلال العظم، محمد عزيز الحبابي، شيخ بوعمران، محجوب بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ميلاد، فؤاد زكريا، زكريا إبراهيم وهو الجيل الذي يشرفني الانتساب إليه، ممهدين لجيل رابع من أساتذة الفلسفة في الوطن العربي كي يعيدوا إلى الفلسفة سيرتها الأولى من الإصلاح وإليه تعود من فجر النهضة العربية الأولى إلى نهضة عربية ثانية.

وهو ينتمي إلى جيل الحرب العالمية الثانية والذي عاصر الأحداث في الوطن العربي قبل الحرب وبعدها.

وقد ولد الفقيد في نفس العام الذي سقطت فيه الخلافة، عام ١٩٢٤ ورأى ضرب دمشق من الاستعمار الفرنسي عام ١٩٤٥، وعاصر كل الثورات العربية ابتداءً من الانقلابات العسكرية في سورية في أواخر الأربعينات حتى الثورات المصرية والعراقية واليمنية والليبية في الستينات.

وبعد أن حصل على البكالوريا الأولى والثانية من دمشق ١٩٤١-١٩٤٢ كانت دراسته الجامعية في القاهرة أثناء الحرب وبعدها ١٩٤٣-١٩٤٧ ولم يغادرها. وعاش مع إخوانه المصريين والعرب خاصة المغاربة والسودانيين الذين كونوا فيما بعد أساس وحدة الأمة العربية؛ حزب الاستقلال مع عَلاَل الفاسي، والحزب الوطني الاتحادي مع إسماعيل الأزهري. ارتبط بالقاهرة مثل ارتباطه بدمشق وجنيف، هذه العواصم وجامعاتها والتي أهدى إليها رائعته الفريدة «فكرة البرهان في الميتافيزيقا» والتي نال بها درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة جنيف، عمل في وزارة التعليم المركزية في أول تجربة وحدوية عربية في التاريخ العربي المعاصر (١٩٥٨-١٩٦١) بعد تجربة محمد علي وإبراهيم باشا في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النصف الأول من القرن التاسع عشر. وساهم في تعريب التعليم في الجزائر ١٩٦٨-١٩٧٢ والعرب بين محنة الانكسار في حزيران- يونيو ١٩٦٧ وقبيل النصر في أكتوبر - تشرين ١٩٧٣.

صورته في الوطن العربي أنه هو هذا المفكر المتعمق المتأمل القليل الكتابة وعميقها، الهادف إلى الكيف وليس الكم[١]، توحد اسمه مع «فكرة البرهان في الميتافيزيقا» في نصه الفرنسي الأصلي قبل أن يترجم إلى العربية منذ عشر سنوات ولت، وقبل أن تصدر مقالاته الأخرى التي تم تجميع البعض منها[٢]. وبالرغم من مراجعها الغربية في الغالب إلاّ أنها فكرة إسلامية أصيلة ومبحث إسلامي قديم، فقد بحث الغزالي عن اليقين قبل ديكارت. وعرف ابن رشد الفلسفة بأنها «النظر في الموجودات بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان». وفرق بين أقاويل ثلاثة: الخطابي، والجدل، والبرهاني. وفي المنطق الأصولي «ما لا دليل عليه يجب نفيه». وفي نظرية العلم في أصول الدين، وكما عرض الإيجي في المواقف» إن كل الحجج النقلية حتى لو تضافرت لإثبات شيء أنه صحيح ما أثبتته، ولظل ظنياً، ولا يتحول إلى يقين إلا بحجة عقلية ولو واحدة». والبرهان

---

(١) Badi Kasm, L´idee de preuve en métaphysique. Puf, ١٩٥٩

د. محمد بديع الكسم: البرهان في الفلسفة. ترجمة جورج صدقني، دراسات فكرية (٨) منشورات وزارة الثقافة الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩١.

(٢) بديع الكسم إعداد وتقديم عزت السيد أحمد دراسات فلسفية وفكرية (١٤) وزارة الثقافة الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٤.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لفظ قرآني ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[١]. والبرهان إما من الله وإما من الإنسان وإما في الموضوع ذاته. فهو رؤية حدسية أو استدلال عقلي أو وضوح موضوعي[٢]. كان الفقيد يعبر عن جوهر حضارتنا العربية وحاجتنا المعاصرة للبرهان بعد أن اتهمنا بأننا حضارة الإنشاء لا الخبر، الشعر لا العلم، الخطابة لا البرهان إلى حد قول بعض المستشرقين «إن العرب ظاهرة صوتية». وروج آخر للوضعية المنطقية حتى نحسن صناعة الكلام. وجعل أحد الشعراء العرب المعاصرين هذه الإنشائية أحد أسباب هزيمة يونيو – حزيران ١٩٦٧

دخلنا الحرب بمنطق الناي والربابة

والعنتريات التي ما قتلت ذبابة

كان الفقيد يبحث عن الإنسان العربي الجديد عن طريق عقلانية الغرب التي أصبحت مشاعاً بين الجميع في القرون الأخيرة، بالرغم من غرابة مادة المنطق والميتافيزيقا على الوجدان العربي الحديث. والمنطق هو

---

(١) ذكر اللفظ في القرآن ٨ مرات، برهانكم (٤) برهان (٣) برهانان (٩).

(٢) البرهان من الله مثل ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ﴾(٤: ١٧٤). ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ (١٢، ٢٤)، ﴿ذاك برهان من ربك إلى فرعون وملته ﴾ (٢٨-٣٢)، البرهان من النفس مثل ﴿تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٢: ١١١)، ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (٢٧: ٦٤)، ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم﴾ (٢٨: ٧٥). البرهان الموضوعي ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له ﴾ (٢٣-١١٧).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أعلى العلوم الفلسفية طلباً للبرهان. أحبه الفقيد بالرغم من أنه لم يؤلف فيه لأنه آلة؛ أما الميتافيزيقا فالموضوع. والدين ميتافيزيقا عوداً إلى تراثنا القديم، وليس شعائر ولا طقوس ولا مؤسسات ولا عقائد. «الله موجود» قضية ميتافيزيقية وحكم منطقي. فلا توجد قضية إلاّ ولها برهان. ولا توجد حقيقة إلاّ ويصدر عليها حكم ضد النزعة الغنوصية التي تؤمن بالعرفان والذوق. والحدس المباشر والرؤية العينية بلا برهان. والنزعة الشكلية اللاإرادية على كافة تياراتها سواء التي تنكر وجود حقيقة أياً كانت أو التي تثبت وجودها وتنكر أهمية البرهان عليها أو التي تثبت وجودها وإمكانية البرهنة عليها ولكن دون يقين.

لذلك قسم «فكرة البرهان في الميتافيزيقا» سبعة فصول. الأول الإثبات والحقيقة من أجل بيان أنه لا توجد حقيقة إلا ولها برهان يثبتها والثالث تعريف الميتافيزيقا وهو سؤال هيدجر «ما الميتافيزيقا». والرابع والخامس عرض نظرية البرهان وتحققاتها في التاريخ. والسادس التمييز بين نظريتين في البرهان، الاتساق سواء كان اتساقاً صورياً، المقدمات مع النتائج، العقل مع نفسه أو التطابق العادي، العقل مع الواقع. والسابع نظرية الحدس أو الوضوح أو الكشف عندما تتضمن الحقيقة برهانها في ذاتها، لا فرق بين الذات والموضوع. وغالباً ما ينكشف ذلك من الشعور القصدي كما هو الحال في الظاهريات المعاصرة، عند هوسرل وشيلر والحدس عند برجسون، وعند أبي حيان التوحيدي وفلاسفة الإشراق قديماً.

يكشف الكتاب عن قدرة عالية من التنظير وإعمال العقل الخالص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في أكثر الموضوعات تجريداً وهو البرهان وأكثر العلوم صورية وهو المنطق، وما تتطلبه الميتافيزيقا من إحساس مرهف. لا توجد أسماء أعلام كثيرة. فالأفكار لها استقلالها الذاتي غير الشخصي. وهذه ميزة الميتافيزيقا على تاريخ الفلسفة. ويتم التحليل اعتماداً على العقل الخالص بعيداً عن الانفعال والإرادة. به روح التأمل الشرقي القديم القائم على الصدق مع النفس. لا يبني مذهباً مغلقاً أو نسقاً تصورياً. ويضع الفلاسفة جميعاً في زمان واحد وفي مكان واحد. يتحاور الجميع فوق جبال الأولمب، ويفكر على تفكير، ويتأمل على تأملات، في قراءات وتأويلات جزئية دون الرغبة في الوصول إلى نسق كلي. وهو جزء من التراث الفرنسي التقليدي الحديث عند بسكال، ومين دي يدان والمعاصر عند لافل ولوسن وجابريل مارسل وليفيناس يعبر عن غابات جنيف وجبال الألب وربوع الشام في آن واحد.

يجمع بين توما الأكويني وتجريده وأغسطين وتجاربه الحية وبسكال وعقلانية ديكارت وبلغة السهروردي هو الحكيم المتأله المتوغل في التأله والمتوغل في البحث.

ومن ثم يؤسس العقلانية العربية الحديثة دون الوقوع في وجدانيات «الجوانية» لعثمان أمين، ولا في الوجوديات التوماديه ليوسف كرم، ولا في التجارب الوجودية عند عبد الرحمن بدوي الأول عند نيتشه وهيدجر أو زكريا إبراهيم عند ياسبرز ومارسل. تجاوز الأخ الفقيد النزعة الإرادية في تحليل الأفكار والنظريات إلى تعليل عقلي صاف مازال جيلنا يحاول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العودة إليه بعد أن عصفت به الأحداث، واعترته الهزائم، وهزته النكسات، وأصبح محاصراً بين القدماء وانفعالات المعاصرين، بين العقل اليوناني القديم أو الديكارتي الحديث وبين انتفاضة الأقصى وصراخ الأطفال وعويل النساء.

يقرأ باتساع ويدل على ذلك الكم الهائل من المراجع في آخر الكتاب. يقرأ ولا يرفض ويحاور ولا يستبعد، يتمثل ولا ينقض، ولا يصدر أحكاماً على الآخرين. يأخذ منهم من يشاء ويترك ما لا يريد يجمع بين كل التيارات والمذاهب، عقلانية أرسطو وتوما الاكويني وديكارت، وحيوية سقراط وأوغسطين. كان يحاول أن يؤسس شخصانية روحانية جديدة كما حاول رينيه حبشي في لبنان ومحمد عزيز لحبابي في المغرب أسوة بمونييه في فرنسا. فهل من الوافد الغربي أساساً، ثقافته الأساسية ورافده الأول، نموذجه ديكارت ثم كانط ثم أفلاطون. فديكارت هو المتأمل الأول، وكانط هو المتأمل الثاني، وأفلاطون نموذج قديم للعقلانيين المحدثين. ويحيل إلى برجسون واسبينوزا حياة التوحد. توحد الشعور، وتوحد الفكر. ويعود إلى أرسطو وتوما الاكويني وهيجل وهيدجر، فالحقيقة في الوجود وليست فقط في البرهان العقلي. تتجلى في الشعور، في الحوار السقراطي الوجودي القديم والحديث عند المسيح وأوغسطين وانسيلم وبسكال وجان هيرش وياسيرز. ينتسب إلى مين دي بيران وبلوندل والكييه وبرييه وشيار وريكير وكما يكشف عن ذلك تحليل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المضمون كما ورد من أعلام في «فكرة البرهان في الميتافيزيقا» [١].

وفي هذا الأفق الواسع من الوافد الغربي القديم والحديث لم ينس الفقيد الموروث، أنه ينتمي إلى حضارة عربية إسلامية فذكر ابن رشد وهو الفيلسوف العقلاني البرهاني، والرسول باعتباره نموذج الحكيم الذي يقوم

---

(١) ترد أسماء الأعلام على النحو التالي: ديكارت (٣٨) كانط (٣٦)، أفلاطون (٢٩)، برجسون (٢٧)، اسبينوزا (٢٦)، أرسطو (٢٣) جان هيرش (٢١)، توما الاكويني (١٩)، شيرر (أستاذه) (١٧)، بسكال (١) هيدجر، قال، أير (١٢)، هيجل، ليبنتز (١١) المسيح (١٠)، انسلم، أوغسطين (٩). الكييه، بركلي، جيلسون، جوبلو، مارسل، نيتشه، روجييه (٨)، برديايف، كولنجود ولاهارب، لالاند، ماركس، ريبو (٧) برنشفيج، كارناب، وجيرو، جنز دورف، هوسرل، بيلرمان، سيكا، فالانسان. (٦)، بلوندل، وليم جيمس، جانيه، لافل، لوكييه، لوسن، بياجيه، سارتر، ريمون، سقراط، رسل (٥). برييه، بارون، شوبنهور، أونامونو، فالكور (٤)، كامو، دور كايم، ربنشتين، هاملان، هيوم، ريكير، فولكييه، ايتورباج، جاليير، روييه، شيلر، سباي، سوروكين، زينون، ستالين، مجنسين بولان، بوانكاربه، سانتيانا، بوبر، سيجون، فيالاتو، فيلدمان، مارتن، امرسن، موروشيز، لنونسل، ليل نابليلي، بارمينيدس، جرمفشن، كيزرلنج، كوايرو، لاليورلار، لوردادى، مالدانش، ماكيب، كورنفورث، ليوس، إنجلز، فولديين، فوبيه، فرانك لاجرانج (٣) انجلاد، بدك، بندا، برجين، مين دى بران، بوخنسكي، بوترو، شفالييه (٢)، آلان، ارلو، بارت، بارنران، بودال، بودار، بوب، برادبي، براسبوجر، شيللر، شاردان، شستوف، شوازي، ميلزل، كونتي، كلتروس، كرسبيوس كلودل(١).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بتحليل تجارب البشر، وابن سينا واضع الميتافيزيقا في صيغتها الشاملة، والغزالي في النفس والمعري وإقبال في الله كنموذج للحقيقة الشاملة. ويذكر الفارابي الفيلسوف المنطقي القديم، وابن تيمية التحليلي للمنطق الصوري، ومحمد عبده العقلاني الإصلاحي، ومن المحدثين نجيب بلدي الذي جمع بين عقلانية ديكارت وحياة برجسون، وقنواني نموذج التومائي الحديث. ومن الأنبياء يذكر بوذا والمسيح ومحمد من وأصحاب الدين الطبيعي[1].

والموضوع الرصيد الذي تناوله الباحث من موضوعات الميتافيزيقا بالإضافة إلى البرهان والتحليل العقلي، هو خلود النفس وليس وجود الله أو خلق العالم، وهي الموضوعات الميتافيزيقية، الرئيسة الثلاثة في كل حضارة. ولو تعرض لقضية الله فإنه يتعرض لها باعتبارها قضية ميتافيزيقة. إلى أي حد أستطيع أن أصدر حكماً على الله؟ كيف يستطيع المحدود أن يحدد اللامحدود؟ فهو ليس من الفلاسفة الطبيعيين مثل أرسطو وتوما الاكويني والمتكلمين المسلمين الذين يبدؤون من الطبيعة إلى الله ومن الحادث إلى القديم، ومن الممكن إلى الواجب، ومن الأعراض إلى الجوهر، ولا من الفلاسفة العقليين الذين يبدؤون بالله كتصور مثل انسيلم وديكارت، بل هو من الميتافيزيقيين المناطقة الذين يبحثون في التصورات وإمكانية حدودها. فهو فيلسوف النفس مثل سقراط وأوغسطين والقديس

(١) ابن رشد، (٤) الرسول، (٣) ابن سينا، الغزالي، المعري، إقبال (٣)، الفارابي، ابن تيمية، محمد عبده، نجيب بلدي قنواتي (١)، بوذا، المسيح، (١).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بونافنتورا والغزالي وديكارت. ﴿وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾. النظر في العالم يحيل إلى النفس ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾. النظر في الطبيعة يحيل إلى النظر في النفس، ويسمو على الحياة الدنيوية كي يحلق في سماء الميتافيزيقا الرحب. إن إثبات خلود النفس سهل بعد إثبات تميز النفس عن البدن. والأصعب إثبات حشر الأجساد ﴿قل من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾. وبالرغم من اتهام الغزالي الفلاسفة بإنكار حشر الأحياء، ودفاع ابن رشد عنهم وإثباته خلود النفس الكلية عن طريق الفكر، وخلود المادة عن طريق التحول إلى طاقة، فالطاقة لا تفنى ولا تبدد.

وهو المنطقي الميتافيزيقي مثل الفارابي أو الحكيم المتأله عند السهروردي، نادر الظهور مثل الإمام الغائب الحاضر، أقرب «إلى تدبير المتوحد» لابن باجه من الإنسان الاجتماعي بالطبع عند الفارابي وابن خلدون وهو إنسان وديع سالم مثل توفيق الطويل يعلو على الأحداث، ويتسامى عليها، ويتحكم في الانفعالات، ولا يطيع أهواء النفس، يوافق أكثر مما يرفض، ويتفق أكثر مما يختلف. ويبدو سعيداً بأنصاره مثل سعادة السيد المسيح بالحواريين، ومحمد بالصحابة، وكثيراً ما يشير إليهما كنموذجين للفكر الميتافيزيقي. كل تعليقاته على كتابات الآخرين إيجابية في معظمها أكثر منها سلبية. فالمهم لديه هو صفاء النفس ونقاء الضمير. جاء ليلقي سلاماً لا سيفاً مثل السيد المسيح. وأسلوبه مثل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شخصيته. الهدوء والوداعة، فالأسلوب هو الشخصية في الكتابة كما أن الشخصية هي الأسلوب في الحياة.

استطاع أن يتعامل مع العصر وأن يعلو على هموم الدنيا، فالحقيقة موجودة والميتافيزيقا مدخل لها، والعقل وسيلتها، والمنطق أداتها. الخطاب الفلسفي غاية في ذاته دون أن يكون له غاية مباشرة أو قصوى إلا كرامة العقل، لم يقترب من الفلاسفة ذوي المزاج الدموي الذين مارسوا العنف الدموي والانفعال الوجودي مثل كيركجرد أو نيتشه بل إن ماركس مجرد ميتافيزيقي عاش في خضم أحداث العصر ونكسة ١٩٤٨ ونكسة ١٩٦٧. ولم يحزن إلاّ الحزن الطبيعي الدفين، وعاش انتصارات التأميم والوحدة في ١٩٥٨ وقوانين يوليو الاشتراكية في ١٩٦٢-١٩٦٣ كما عاش ثورة ١٩٦٩، وحرب أكتوبر - تشرين ١٩٧٣، والانتفاضة الأولى في ١٩٨٧، وانتقل إلى رحمة الله أسبوعاً بعد انتفاضة الأقصى. استطاع هذا المتأمل المتوحد أن يعي واقعه. مقالاته أيضاً لم يتنازل عن هدوئه وصفائه حتى في أشد الموضوعات تأزماً مثل الحرية وأزمة الإنسان الحديث والقومية. ظل الفيلسوف الهادئ الباحث عن الحقيقة الفلسفية واللغة الفلسفية بالرغم من علمه بعلم اجتماع المعرفة [1].

إن الفقيد الراحل هو بالنسبة لنا رائد ومعلم ونموذج نقتدي به. نحاول أن نكون مثله لولا أن يعصف بنا أحياناً عجزنا وصراخنا كما نفعل هذه الأيام وفي عصر يسوده العنف والتعصب والاستعباد والإقصاء المتبادل

(١) بديع الكسم إعداد وتقديم عزت السيد ... ط ... وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٨.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأحادية الطرف. وفي عصرنا عرّف محمد عبده الفيلسوف بأنه «العاكف على شأنه الخبير بأهل زمانه» وهو أفضل تعريف للفقيد الراحل. فعزاء جيلنا فيه عزاء الصداقة للقرابة، عزاء القاهرة لدمشق[1].

* * *

(١) هذه التحية قراءة متواضعة للفيلسوف الراحل بديع الكسم يغلب عليها مآثر الفقيد بمناسبة عزاء الأربعين، وتضاف إلى قراءات في فكر بديع الكسم تقدمة عزت السيد أحمد.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net